الباب الرابع

الهوية والعولمة

obeikandl.com

obeikandl.com

العولمة الثقافية والهوية:

والعولمة الثقافية هي أصل العولمات لأن الثقافة هي التي تهيئ الأذهان والنفوس لقبول الأنواع الأخرى، وتجعل الناس مستعدة للانضمام إلى الأنظمة والمؤسسات والاتفاقيات الدولية والثقافة عنصراً أساسياً في حياة كل فرد ومجتمع وأمة، وتشمل التقاليد والمعتقدات والقيم وأنماط الحياة المختلفة والفنون والآداب وحقوق الإنسان إنها الهوية المُعَبِّرَة عن الشعور بالانتماء لدى أفراد كيان اجتماعي معين، والتي تُشْعِر أصحابها بخصوصيتهم، ورصيدهم من الخبرات والمعرفة وأنماط السلوك وللعولمة الثقافية وسائلها ومضامينها؛ فوسائلها هي هذه الآلات والأدوات والأجهزة التكنولوجية والإلكترونية، أما مضامينها ومحتواها فهي هذه البرامج الفكرية،والتصوراتٌ الأدبية والفنية، والمذاهبُ والنظرياتٌ النقدية، والآراء العقائدية الأيديولوجية، ووجهات النظر السياسية،ونمط الحياة والتقاليد الاجتماعية في الملبس والمأكل والمشرب،والبرامج التمثيلية والغنائية والموسيقية، وما شابه ذلك ومن هنا نجد أن العولمة ليست نظاماً اقتصادياً وحسب، بل ترتبط ارتباطاً عضوياً مع وسائل الاتصال الحديثة التي تنشر فكراً معيناً، وثقافة معينة، يمكن أن نطلق عليها اسم ثقافة الاختراق وعلى الرغم من إقرار المجتمعات الإنسانية على مر التاريخ بوجود تمايز ثقافي فيما بينها، فثمة اتجاه سائد الآن تقوده الولايات المتحدة الأمريكية يدعو إلى إنكار

هذا التمايز،على اعتبار أن التدفق الإعلامي عبر الحدود، وثورة المعلومات من شأنها نشر ثقافة كونية واحدة وتبرز قضية الهوية الثقافية بمجرد حديثنا عن الانتقال عبر الحدود خاصة في مجال المعلومات والأفكار والاتجاهات والأنماط السلوكية.

ولقد لعبت ثورة الاتصالات دوراً أساسياً في إحداث هذا التأثير الثقافي؛ فبدلاً من الحدود الثقافية الوطنية والقومية، تطرح أيديولوجيا العولمة حدوداً أخرى،غير مرئية، ترسمها الشبكات العالمية، بغرض الهيمنة على الأذواق والفكر والسلوك وقد أدى استخدام القنوات الفضائية والشبكة العنكبوتية الإنترنت، إلى تقلص دور الكلمة المكتوبة لحساب الصورة المرئية، ولهذا الأمر أهميته البالغة، لأن الكتاب مثلاً كان يخاطب النخبة في حين يتسع جمهور الصورة ليشمل مختلف شرائح المجتمع، ولأن الكتاب كان يتوقف أحياناً عند حدود الدول،وقد لا يسمح له بالدخول إليها، في حين تتخطى الصورة جميع الحدود السياسية والحواجز الجمركية وما يُقال عن الكتاب، يُقال أيضاً عن الصحف والمجلات وغيرها من المواد المكتوبة.

إن أكثر ما يلفت الانتباه من ظواهر العولمة في المجال الثقافي، هو المدى الذي بلغته الثقافة الشعبية الأمريكية من الانتشار والسيطرة على أذواق الناس في العالم فقد أصبحت الموسيقى وبرامج التليفزيون

والمسلسلات والأفلام السينمائية الأمريكية، منتشرة في أرجاء العالم، كما أن النمط الأمريكي في اللباس والأطعمة السريعة والمشروبات وغيرها من سلع الاستهلاك انتشرت على نطاق عالمي واسع وصارت اللغة الإنجليزية لغة عالمية،وانتشرت اللهجة الأمريكية، على وجه الخصوص،انتشاراً واسعاً ومن أسباب هذا النفوذ الثقافي الواسع سيطرة الاقتصاد الأمريكي بوصفه سوقاً مستوردة ومصدرة، وهيمنة شركات الإعلان الأمريكية على التسويق العالمي، ولما للولايات المتحدة من تفوق واضح على منافسيها الاقتصاديين في المجالات الثقافية الشعبية ،وعلى الأخص في صناعتي السينما والموسيقى ويبدو أن الولايات المتحدة تعتمد في نشر نمطها الثقافي على تفوقها التقني وهيمنتها السياسية والعسكرية والاقتصادية،معرضة مقومات الهوية الثقافية للمجتمعات الأخرى إلى خطر الذوبان، وهو ما يدعونا إلى الاعتقاد أن الثقافة الكونية المُعَوْلَمَة ليست إلا نتاجاً لثقافة مُهَيْمِنَةٍ هي ثقافة الغرب وتحديداً الولايات المتحدة الأمريكية وليست نتاجاً لتفاعل الثقافات الأخرى وتضافرها وتناظرها ٠

وتجدر الإشارة إلى أن عملية الأخذ والاقتباس من الآخر لا يمكن أن تفرز لنا كياناً متطابقاً تمام التطابق مع هذا الآخر فعلى الرغم من هذا الاحتكاك الذي يحدث بين المجتمعات الأوروبية، نجد أن طبيعة المجتمع البريطاني مثلاً تختلف عن الفرنسي، وكلاهما يختلفان عن الإيطالي،

سواء في النظام السياسي أو الاقتصادي أو السلوك الاجتماعي أو الفكر والثقافة ويظهر هذا الاختلاف بوضوح أكبر عندما نقارن بين الولايات المتحدة واليابان، فرغم اعتناقهما لنفس النظام الاقتصادي والسياسي، ومع غلبة مظاهر المجتمع الصناعي الحديث في كل منهما، فإن شكل الحياة وقيم المجتمع في اليابان ليست متطابقة مع تلك السائدة في الولايات المتحدة ويرى البعض أنه لا يوجد دليل على أن العولمة بالضرورة تهدف إلى محو الهويات الثقافية المتعددة، لأن العولمة ليست بحاجة إلى فرض نظام ثقافي موحد على مستوى العالم،ومن المستحيل محو التعدد الثقافي في العالم مهما خطَّط المُخَطِّطون فالاحتكاك بين الحضارات، والأخذ والعطاء، والتأثير والتأثر، لا يؤدي على الإطلاق إلى ذوبان هذه الحضارات في حضارة واحدة، حتى ولو على المدى البعيد ونحن لا نعتقد في إمكانية وجود ثقافة عالمية واحدة، وليس من المحتمل أن توجد في يوم من الأيام مثل هذه الثقافة ويعرف عالمنا اليوم، كما عرف طوال التاريخ، ثقافات متعددة متنوعة، لكل منها خصائصها، ويحرص أصحابها على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة.

والذين يرفضون العولمة ويرون فيها خطراً على الأفراد وعلى الأمة، إنما ينظرون إلى أنها تمثل ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية على وجه التحديد،لذلك أطلقوا عليها اسم الأمركة وقد رفضت أوروبا هذه الأمركة، لذلك نجدها تحصن نفسها بالاتحاد الأوروبي حتى تتمكن من منافسة

الولايات المتحدة، ومع ذلك، خشيت بعض دولها على ثقافتها وعلى لغتها من أن تطغى عليها هذه الثقافة الوافدة وكان من هذه الدول، فرنسا واليونان اللتان هاجمتا الولايات المتحدة هجوماً عنيفاً في المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي نظمته اليونسكو في المكسيك سنة ١٩٨٢م، حتى إن فرنسا امتنعت عن التوقيع على القسم الخاص بالسلع والمواد الثقافية من اتفاقية الجات ٠

والخوف من الغزو الثقافي الأمريكي لم يقتصر على دول العالم الثالث التي توصف بأنها بلاد نامية، بل وجدناه يسيطر على دول كاليونان وفرنسا وبعض الدول الأوروبية الأخرى وإذا كان هذا هو موقف هذه الدول من العولمة، وهي دول تنتمي إلى نفس الحضارة التي تنتمي إليها الولايات المتحدة الأمريكية، فكيف تكون الحال مع شعوب العالم الثالث التي تختلف عن هذه الدول الغربية في الجوهر والكيان، وقد تصل ثقافاتها معها إلى حد التناقض؟٠

ومن اللافت للنظر أن دول الغرب، خاصة الولايات المتحدة، التي تنادي بالديمقراطية والتعدد، والرأي الآخر، وحرية العقيدة والتعبير، تصادر في نفس الوقت كلَّ ذلك وتلغيه حين تحاول أن تفرض على غيرها نمطاً واحداً من ثقافة واحدة، هي ثقافتها التي ترى أنها الوحيدة الصالحة للعالم،وبذلك تدمّر الخصوصيات الثقافية للشعوب الأخرى وتفرض عليها

ما يخالف عقيدتها ويسلبها هويتها ففي وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان مثلاً، نجد الكثير من البنود التي تصادر الرأي الآخر، وفيها إهدار لحقِّ الشعوب في أن تعيش وفق ثقافتها وعقيدتها، مما جعل البعض يرى فيها تعميماً لفكر غربي، وفرضاً للثقافة الغربية ومن هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق والاتفاقيات والمعاهدات ندرك أن ديمقراطية الغرب تتناقض مع نفسها أحياناً، وتتنكّر لدعوتها، حين لا تسمح بالتعدد والرأي الآخر وحرية العقيدة، عندما تفرض وجهة نظر واحدة وثقافة واحدة .

أثر العولمة على الهوية العربية الإسلامية:

العولمة ظاهرة أفرزتها ثورة الاتصالات وتقنية المعلومات في ظل النظام العالمي الجديد، الذي أتاح للولايات المتحدة ودول الغرب السيطرة الكاملة والهيمنة على العالم، في كافة المجالات وقد اهتم المفكرون بهذه الظاهرة وما يترتب عليها من ونتائج تؤثر على الناس في شتَّى مناحي الحياة،وبصفة خاصة، على هويتهم وعندما نذكر مصطلح العولمة ، أو نسمعه، فالذهن يتجه فوراً إلى الكونية، أي إلى الكون أو العالم الذي نعيش فيه، ومن هنا ندرك أن المصطلح يعبر عن حالة من تجاوز الحدود السياسية الراهنة للدول إلى آفاق أكثر اتساعاً تشمل العالم بأسره وهذا يعني تنازل الدولة الوطنية، أو حملها على

التنازل عن حقوقها، لصالح العالم، أو بعبارة أدق، لصالح المتحكمين في هذا العالم وتحَكُّم الولايات المتحدة الأمريكية في أكثر من ٦٥% من وسائل الإعلام العالمية، ساعدها إلى حد بعيد في نشر الطابع الأمريكي ولما كان من اليسير على الولايات المتحدة نشر القيم والمبادئ الأمريكية، لامتلاكها وسائل القوة الاقتصادية والعسكرية، كان من البديهي أن تسخر هذه العولمة لصالحها فالعولمة هي هذا النظام العالمي الجديد، أحادي القطب، يدور في فلكه كافة دول العالم، ويسيطر اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وعسكرياً وتكنولوجياً وتلعب فيه الولايات المتحدة دوراً فاعلاً ومحركاً وأساسياً.

وتركز بعض الكتابات العربية التي تعرضت للعولمة على المخاوف المتوقعة من غزو العولمة الثقافية وتهديد موجاتها المتدفقة للهوية العربية الإسلامية أو الهوية الثقافية القومية وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم الهوية الثقافية القومية الذي يعنينا هنا، والذي يُقصد به الهوية المشتركة لجميع أبناء الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، لا يعني قط إلغاء ولا إقصاء الهويات الوطنية القطرية ولا الهويات المحلية والطائفية إنه لا يعني فرض نمط ثقافي معين على الأنماط الثقافية الأخرى، المتعددة والمتعايشة، عبر تاريخنا المديد داخل الوطن العربي الكبير وتعتبر اللغة من أهم العناصر التي تُشَكِّل هوية أية جماعة وأي وطن، وهي التي تطبع هذه الهوية بطابعها الثقافي المميز واللغة العربية

هي اللغة المشتركة التي يتحدث بها جميع أبناء الأمة العربية ، وهي لغة التراث المشترك،ولغة العلم والثقافة، وبالتالي لغة والحداثة إنها الرابطة المتينة التي توحد بين مستويات الهوية في الوطن العربي، وهي الأداة التي بها يمكن للعرب الدخول في العالمية وتحقيق الحداثة ويمكن للغة العربية إذا أردنا أن تكون جسراً تعبر عليه ثقافات الشرق والغرب، فينتقل إلينا بواسطتها ما وصل إليه الآخرون من تقدم علمي وتكنولوجي ، ويكون دَوْرُنا الأهم في تفعيل حركة النقل والترجمة هو دقة الاختيار والتركيز على ما يفيد خططنا ولقد أنفقت اليابان عشرات المليارات على حركة الترجمة لتضع شعبها ومؤسساتها الأكاديمية على قدم المساواة معرفياً مع العالم الذي كانت تقوم عليه العولمة المعاصرة فهل يمكننا أن نفعل شيئاً شبيهاً بما فعلته اليابان في هذا المجال؟.

إن الثقافة العربية بمختلف مستوياتها المادية والروحية تتميز بنوع من الثنائية، التي طبعتها منذ ما يقرب من قرنين، نتيجة احتكاكها مع الثقافة الغربية، وهي ثنائية التقليدي والعصري التي كرست الازدواج والانشطار داخل الهوية الثقافية العربية وليست العولمة وحدها هي المسئولة عن نشر ثقافة دون أخرى في عالمنا العربي، وليست هي التي تقود معركة الغزو الثقافي،لأن جميع تكنولوجيات الاتصال في بيوتنا مفتوحة على العديد من محطات الإذاعة والقنوات الفضائية العالمية، والشبكة العنكبوتية الإنترنت وغيرها، ولم نعمل شيئاً في سبيل وقفها

وهذا يعني أن ما يسمى بالغزو الثقافي للعولمة لا يتضمن أي نوع من الاقتحام القسري بواسطة قوة خارجية تقوم بانتهاك خصوصيتنا أو الاعتداء عليها وليس بالضرورة أن كلَ ما يهجم على هويتنا العربية والإسلامية قادمٌ إلينا من الخارج، فإن الذين يتابعون منّا القنوات الفضائية الأجنبية، والشبكة العنكبوتية الإنترنت، والمجلات والجرائد والكتب الأجنبية الخليعة،لا يزالون قلّة لكن الوسائل التي اخترقت كياننا وثقافتنا ووصلت إلى أبنائنا وبناتنا،صغاراً وكباراً، في بيوتنا ومؤسساتنا ، هي من صنع أنفسنا وتتمثل هذه الوسائل في بعض الإذاعات والقنوات الأرضية والفضائية العربية وعدد غير قليل من الصحف والمجلات التي تفاجئنا وتفجعنا بتقديم أكثر البرامج والكتابات والصور تهتّكاً وبُعداً عن قِيَمنا الإسلامية وثقافتنا العربية ومع ذلك فإنه يتعين علينا أن نوجِد لدى جماهيرنا وعي بأن يختاروا من بين الصور والرسائل الإعلامية المختلفة ما يتفق مع قيمنا الدينية ومثلنا الأخلاقية ومعتقداتنا الاجتماعية وتوجهاتنا السياسية، وبمعنى أعم وأشمل، ما يتفق مع ثقافتنا القومية دون أن نغالي في الحديث عن مساوئ العولمة وآثارها الضارة المدمرة وعلينا أن نوجِد آلية نتعامل من خلالها مع الجوانب السلبية للعولمة بالشكل الذي يحفظ للأمة العربية هويتها ويضمن لها مكانتها بين الأمم ويساعد على تحقيق آمالها، ويؤكد الحفاظ على حقوقها الكاملة في السيادة والتقدم والتعاون العادل المثمر بين الشعوب.

إن الأمة العربية والإسلامية لديها مقومات النهوض الثقافي والفكري، لكنها تحتاج إلى إرادة قوية قادرة على تفعيل هذه المقومات، ويمكنها وضع الآليات التي تستطيع من خلالها تنفيذ استراتيجيتها حتى نحتل موقعاً يرضينا على الساحة العالمية وإذا سَلَّمْنا بأن العولمة هي واقع قائم لا مفرّ منه، بسبب ما يشهده العالم من تغيرات متلاحقة وسريعة في مجال الاتصال والتكنولوجيا، فالخيار الذي نأخذ به هو التعامل مع معطيات العولمة بصورة جادة وواقعية،و نحاول أن نأخذ موقعًا ملائماً في هذا العالم، دون أدنى تفريط في هويتنا وثوابتنا ونعي أن لكل إنسان مصالحه الخاصة، فكما أن لدينا مصالحنا، فلدى الآخرين مصالحهم في شتى المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والإعلامية وغيرها، وهم يعملون جاهدين على تحقيقها ولا نستطيع أن نوقف الآخرين عن تحقيق مصالحهم، لكن ما نستطيع أن نفعله هو التصميم على مواكبة العصر، والأخذ بما تصل إليه أيدينا من تقدم علمي وتكنولوجي ويرى المسلمون أن العولمة بمعنى التسليم للهيمنة الغربية، وفرض التبعية للغرب، والسير تحت لوائه، أمر مرفوض تماماً ويعتقدون أن العولمة بالمفاهيم الغربية، ضد الدين الإسلامي الذي يفضحها ولا يقبلها ، وهم يرون في هذه القضية نوعاً من التحدي: فإما نكون أو لا نكون ويرى أصحاب هذه النظرة أن الأمة إذا قبلت أسس العولمة الغربية تكون قد فرطت في دينها، وإذا تمسكت بدينها فلا يجب أن تقبل شيئاً من هذه

العولمة ، لما تجلبه من سلبيات وأخطار وإذا كان الأمر كذلك، فما العمل إزاء سلبيات العولمة وأخطارها التي يرى فيها البعض تهديداً للهوية الثقافية العربية والإسلامية؟ يرى البعض أن التعامل مع الغرب لا يمكن أن يتم بالاختيار والانتقاء، فإما أن نأخذ عن الغرب كل شيء، فنصبح غربيين أو أشبه بالغربيين، أو أن ندير ظهرنا كلية للغرب حماية لأصالتنا ونقائنا ومن الطبيعي أن تتفاوت وجهات النظر تجاه المواقف التي ينبغي تبنيها فيما يتعلق بالتعامل مع الغرب أو بالانفتاح على الآخر، وما ينجم عن ذلك من تأثيرات أجنبية تهدد هويتنا الثقافية وهناك موقفان سائدان، هما:

١ موقف الرفض المطلق وسلاحه الانغلاق الكلي الذي يُوَجَّه إلى الذات ٠

٢ موقف القبول التام للعولمة وما تمارسه من اختراق ثقافي، أي الارتماء في أحضان العولمة والاندماج فيها ٠

وتجدر الإشارة إلى أننا لا نقلل، ولا نهوِّن من الخطورة التي يمكن أن تلحقها العولمة الثقافية بهويتنا بوجه خاص، وبالتنوع الثقافي بوجه عام، لكننا في نفس الوقت، لا نميل إلى المبالغة في ذلك وحتى لا نُصاب بالجمود، فنتخلف عن مواكبة هذا التطور العلمي المتسارع من حولنا، يجب أن نتقبل الجديد، ونسعى إليه، مع المحافظة على هويتنا الثقافية بعيداً عن التعصب والانغلاق وإذا كانت ثقافتنا العربية تعاني اليوم من

الثنائية والانشطار، ومن الاختراق الثقافي بفعل العولمة، فإن ما يجب أن نفعله هو الانطلاق من الداخل، أي من داخل ثقافتنا العربية نفسها، لأنه من المؤكد أنه لولا الضعف الداخلي لما استطاع الفعل الخارجي أن يمارس تأثيره بالصورة التي تجعل منه خطراً على الكيان والهوية والعولمة الثقافية ليست دائماً عدواناً مقصوداً مخططاً له، يُوَجَّه إلينا لاستلابنا حضارياً وثقافياً ويجب ألا نتعامل مع العولمة الثقافية من موقف التوجس والرفض والعدوانية دائماً، لأننا بذلك نكون قد شجعنا التقوقع والتراجع إلى الذات دون أن نستفيد من التفاعل الحضاري الضروري لتطور الثقافات وتطور الحضارات ولا بد أن نعي ونعترف أن في أوربا وأمريكا علماء ومفكرون اجتماعيون وسياسيون واقتصاديون، لهم مكانتهم وأثرهم في الفكر الإنساني وفي تطوير العلم والمعرفة، ولهم نتاج جدير بأن نطّلع عليه ونستفيد منه إذا أردنا لأنفسنا ولأمتنا أن نسير في ركب التقدم وأن نشارك في موكب الحضارة والعلم وليست الحياة في الغرب على النحو الذي تنقله لنا القنوات الأرضية والفضائية من مظاهر العُرْي الفاضح، والتهتّك، وإنما فيها أيضاً من التستّر والاحتشام والتدين والعمل الجاد والسعي الدائب، بالقدر الذي أوصلهم إلى ما هم فيه الآن لذلك، يجب علينا أن نوجد الآلية التي نختار بها ما لا يتعارض مع عقيدتنا وهويتنا، وأن نُكَوِّن الفكر الذي نستطيع به التعامل مع الفكر

الآخر، الفكر الناقد الذي يستطيع أن يختار ما يناسبه ويطرح بعيداً ما لا يناسبه.

الليبرالية وتمييع الهويات:

لا يخفي على أحد أن الليبرالية صنيعة غريبة، وهي آخر منتج خارج من دولاب الفلسفات والمذاهب الغربية، وهي بحق أنضجها، حيث جاءت بعد عناء طويل تعددت فيه السقطات والإخفاقات، جاءت الليبرالية لتصلح ما أفسدته أنظمة كثيرة كالشيوعية والرأسمالية، والعلمانية وغيرها من المذاهب والفلسفات الغربية ومن جانب آخر جاءت لتحل محل الهويات المناوئة للهوية الغربية، وفي محيطنا العربي والإسلامي سعت الليبرالية منذ أن حطت رحالها إلى تذويب الهوية الإسلامية، ومحو معالمها.

فجاءت على عكس القومية لتجعل من المجتمع الواحد مجتمعاً مهترئاً ، لا رابط بين أفراده، ولا هم ولا قضية تجمع بينهم، فلا حاكم لأصحابها إلا الغريزة، ولا هدف لهم إلا الانفكاك من كل قيد، والأخطر من ذلك أنها سعت إلى إماتة كل العصبيات والهويات الصالح منها والفاسد، فبالإضافة إلى سعيها إلى القضاء على الهوية القومية والوطنية؛ قضت على الهوية الإسلامية، ومن ثم قضت على الشعور بالعداء نحو أي محتل، وأصدق مثال على هذا ما حدث في العراق وأفغانستان حيث وجدنا هذا الصنف

من المفكرين من أوائل من ارتمى في أحضان الغزاة، وزينوا لهم أعمالهم بحجة الإرهاب، ونشر الديمقراطية.

البحث العلمي العربي في عصر المعلومات

لقد أصبح العقل شاغل الجميع بعد أن أصبح مصير الأمم والشعوب رهنا بنتاج العقول، وقدرة أصحابها على مواجهة القوى الاجتماعية الحاكمة: السياسية والاقتصادية والعسكرية، وكذلك القوى الرمزية التي يلعب فيها العلم دوراً رئيسياً وحاسماً،وإن كانت حكمة الماضي قد علمتنا أن المعرفة قوة، فقد أثبتت لنا حقائق الحاضر أن القوة أيضاً معرفة، فالقوة قادرة على توليد معرفة تخدم غاياتها، وتبرر ممارساتها وتؤازر أساليبها في إحكام قبضتها على المصادر والمصائر، وتأتي معرفة عصر المعلومات لتجسد المغزى الخطير لكون المعرفة قوة؛ فلم يعد ذلك هاجساً عابراً يثير القلق، بل واقعاً جاثماً يثير الذعر ويهدد مصير كوكبنا الهش الذي يشكو من التصدع ويزخر بالصراع،وهو أمر يتطلب تحليلاً دقيقاً لعلاقة تكنولوجيا المعلومات بالعقل صانع هذه المعرفة.

إن معرفة الحاضر تواجه الأزمات على جميع الجهات، فعلوم الإنسانيات باتت في أمس الحاجة إلى منهج جديد يخلصها من تبعيتها المنهجية لعلوم الطبيعيات، التي تواجه أزمة منهجية لا تقل حدة، والتي تعود أساساً إلى عجزها عن تناول ظاهرة التعقد، والفن الذي هو نوع

من المعرفة يواجه أزمة عنيفة، وما أكثر ما واجه الفن من أزمات في الماضي إلا أنها لا تقاس بالأزمات التي فجرتها تكنولوجيا المعلومات في جميع أرجاء منظومة الإبداع الفني: على مستوى المبدع والمتلقي والعمل الفني ذاته .

خلصت دراسة حديثة لليونسكو إلى أن الفكر السياسي قد تخلف، وهناك بون شاسع بين خيالنا السياسي وخيالنا العلمي، وبالقطع لم يصب الخمول فكرنا السياسي دون سواه، ففكرنا الاجتماعي مازال يحوم حول أطلال ماكس فيبر ودوركايم وكارل ماركس؛ عاجزاً عن فهم طبيعة مجتمع المعرفة، وفكرنا الاقتصادي مازال أسير اقتصاد الكازينو يسعى دون جدوى لمد نموذج اقتصاد عصر الصناعة ليشمل الاقتصاد الجديد، اقتصاد عصر المعلومات، وأخيراً وليس آخراً، مازال فكرنا التربوي يقف حائراً غير قادر على استيعاب ما تعنيه نقلة التعلم عن بعد، والتعلم مدى الحياة، فمازال أسير ما خلفه له تعليم عصر الصناعة ذو طابع إنتاج الجملة، القائم على تجنيس العقول وقياسها ، وهو الطابع الذي ينكر على الصغار إبداعهم، ويخرس أفواه الكبار لينضموا تباعاً إلى جحافل الأغلبية الصامتة.

العولمة ودورها في أزمة الثقافة العربية:

لاشك أن التغيرات والظروف التي اجتاحت البشرية في العقود الأخيرة من القرن الماضي طالت وأصابت سهامها كل مناحي الحياة مما أدى إلى دفع الإنسانية إلى الدخول في مرحله جديدة من مراحل تاريخها وهو ما أطلق عليه العولمة أي كان لها دور كبير في إخراج كثير من القضايا من أفقها المحلي الضيق إلى إطار أوسع وعالم رحب فسيح لتكون متاحة أمام العالم أجمع دون قيود أوحواجز موانع تعيق مسيرتها وتحولاتها ولاشك أنها بتجلياتها المختلفة فرضت على المجتمعات الانفتاح والتلاقي متناسيه خصوصيات الشعوب مما أحدث سجالاً عميقاً بين الأفراد سواء على مستوى النخب أو على مستوى العامة مابين رافض وبشدة للعولمة باعتبارها طمس لهويه وخصوصية الأمم والشعوب وتذويب لقيمها ومبادئها على حساب نشر قيم غريبة عنها وصبغ العالم بصبغه واحدة لا ثاني لها هي الصبغة الغربية ،وما بين مقبل على العولمة بنهم وشغف دون أدنى تحفظ على كل أو جزء من تجلياتها ،فأحدث ذلك سجالات كثيرة على المستويات كافه ما زالت أحداثها تدور إلى هذه الساعة ويصعب القول أن منطقتنا العربية والإسلامية بعيدة عن العولمة وتجلياتها لأنها أصبحت واقعاً مفروضاً لا يستطيع أحد التعامي عنه والانكفاء على ذاته لان ذلك سيلحق به أقصي ضرر لأن قافلة الحضارة

الإنسانية تسير بسرعة فائقة ويكفي أن نعلم أن التطورات التقنية التي حدثت في العالم في العقد الأخير من القرن الماضي تعادل ما حققته البشرية على مدى قرن كامل وأكثر من ذلك لذا فان التقوقع على الذات صعب وشاق في ظل هذه الظروف ،وما يهمنا في هذا كله هو الأزمه الثقافية التي نعيشها وما هو دور تطورات العولمة وتطور وسائل تكنولوجيا المعلومات ونظم الاتصال والمواصلات في تشكيلها التحدي الأكبر للثقافة والمثقف العربي وتعتبر وحدة اللغة عنصر هام من عناصر الوحدة القومية وهى أكبر عامل يولد في نفوس الناس إرادة الانتظام في أمة واحدة، وإذا كان الإنسان يتميز عن الحيوان بأنه مدني اجتماعي وناطق مفكر ، فالشعوب تتميز بعضها عن بعض بأن لكل منها لغة خاصة تتكلم بها، فلاشك أن اللغة هي أقوي رباط معنوي بين الأفراد ، وكما قالوا فاللغة أصوات يعبر عنها كل قوم من أغراضهم ،ومعني هذا أن لكل قوم لغتهم ، ومتي تفاهم الأفراد بلغة واحدة تقارب تفكيرهم، ونشأ فيهم شعور بالتعاطف، قلما ينشأ مثله بين أفراد يتكلمون لغات مختلفة ، وهذا التعاطف أمل عظيم في جعل المتكلمين لغة واحدة يؤلفون أمة واحدة ، ولما كانت اللغة هي عماد الثقافة للأمة ، والثقافة بالنسبة للأمة هي الروح بالنسبة للإنسان ، لذلك يذهب البعض إلي أن الأمة ليست ملايين من البشر ، يعيشون علي نفس الأرض أو يرجعون لأصل واحد فحسب ، بل وحدة من الفكر والشعور، والإرادة ، والعمل ، ومن

أجل المشاركة في الفكر والشعور والإرادة والعمل، لابد أن يكون هناك اتصال بين أعضاء الجماعة القومية ، ومن ثم كان للغة أهميتها وأثرها كأداة فعالة في تشكيل الوحدة القومية .

نماذج للآثار السلبية للعولمة على الهوية

أمريكا لا تهدف إلى تطبيق قيمها فحسب، بل إنها تنطلق من مصالحها المجردة من المبادئ والتي تكيل بمكيالين وتشكل خطورة عظيمة على القيم والأخلاق والهويات لا سيما الإسلامية وهذه أمثلة:

يحرم الشيشان من الإنفصال عن روسيا ويجبر أهل تيمور على الانفصال من اندونيسيا بتدخل من استراليا ودعم الغرب وكذلك تنفصل تماماً دول البلطيق وجورجيا من روسيا بينما الدول الإسلامية فاستقلالها غير كامل ودية الأفغان الذين قتلوا في عرس ٢٠٠ دولار وقد اعترفت أمريكا بالخطأ بينما من قتل في لوكيربي ١٠٠٠٠٠٠٠ دولار أي ٥٠٠٠٠ ضعف .

فالعولمة تترك أمريكا تُهاجَم دولة ذات سيادة حتى دون إذن من الأمم المتحدة لشبهة أسلحة الدمار الشامل، وتُترَك دولة قريبة منها تمتلك أسلحة دمار شامل وتحتل أرض غيرها مخالفة لقرارات الأمم المتحدة .

أمريكا تمارس دوراً منفرداً حيث تدعم إسرائيل، وترفع الفيتو بعد الآخر لتتمكن من العدوان، وتعتدي على العراق بحجج واهية وحتى دون موافقة مجلس الأمن التي لها أكبر نفوذ فيه، وتأخذ المعتقلين من أفغانستان إلى جوانتنامو دون محاكمة عادلة، وتحارب الجمعيات الإسلامية وترهبها وتجمد أموال من تريد منها دون أدلة ٠

المنظمات الفلسطينية المقاومة للاحتلال إرهابية، والمحتل مدافع عن نفسه، والجماعات الإسلامية في أفغانستان المقاومة للاحتلال الأمريكي وحكومته إرهابية، بينما كان الوضع إبان الاحتلال السوفيتي وكانت تلك الجماعات مقاومة مشروعة مدعومة، مما يعني وجود اختلال حاد في موازين العالم تحت إمرة الحضارة الغربية الصليبية الصهيونية ٠

وهذا صمويل هنتجنتون في صدام الحضارات يدعو للتعصب للحضارة الغربية ومحاربة ما عداها لاسيما الإسلامي، وهو في كتابه مرة بعد مرة يمارس تحريضاً على الإسلام وتخويف الأوروبيين منه، للإنضواء تحت أمريكا والغرب وإشعال فتيل التعصب الديني ٠

وهذا ما حدا بتوم فريدمان للقول: نحن أمام معارك سياسية وحضارية فظيعة، والولايات المتحدة قوة مجنونة، نحن قوة ثورية خطرة، وأولئك الذين يخشوننا على حق وفي آخر سنة ٢٠٠٣م كانت استطلاعات الرأي في أوروبا أن أمريكا ثم إسرائيل تمثل أكبر خطورة على السلام العالمي٠

فالعولمة هجمة صهيونية شرسة لا تتقيد بالمبادئ، وفي أحسن أحوالها أمركة وتغريب ما لم نقم بدور فعال لتخفيف آثارها والتأثير فيها، وهي حتى لكثير من الغربيين ليست خير للعالم حتى في الجانب الاقتصادي الذي يبشر به البعض، حيث نجد أن هانس بيتر مارتين في كتابه الشهير فخ العولمة الذي ركز على العولمة الاقتصادية، يؤكد أن العولمة فخ كبير مليء بالأكاذيب وهي في النهاية تزيد الفقراء، ونجد في الفصل الخامس من الكتاب على سبيل المثال عنوان أكاذيب ترضي الضمير أسطورة الميزة على استقطاب الاستثمارات وخرافة العولمة العادلة كما أن الشعوب حتى الغربية تخرج في مظاهرات شعبية عارمة معارضة لكل مؤتمرات العولمة لما يرونه من إضرار بهم ٠

ونجد أن الغرب لا يسعى لنشر قيمه الاجتماعية فحسب رغم عدم الاقتناع الواسع بها كقيم، بل إنه يفرضها عبر المؤتمرات الدولية والضغط على الدول التي لا تستجيب، حيث توالت مؤتمرات المنظمات الدولية بهذا الخصوص، مثل مؤتمر نيروبي عام ١٩٨٥م، مؤتمر القاهرة عام ١٩٩٤م، ومؤتمر بكين عام ١٩٩٥م، ومؤتمر اسطنبول عام ١٩٩٦م، ثم مؤتمر نيويورك عام ١٩٩٩م، ثم مؤتمر بكين، ثم نيويورك أيضاً عام ٢٠٠٠م، ومحور هذه المؤتمرات يدور حول الأسرة والمرأة والطفل، مركزاً على الحقوق الجنسية،والحق في الإنجاب والإجهاض، والشذوذ، وقضية المساواة بين الرجال والنساء، والمساواة

في الميراث إلخ، وكل هذا من منظور الثقافة الغربية العلمانية المادية الإباحية التي تبيح الزنى واللواط وتمنع تعدد الزوجات ٠

والفصل السابع من وثيقة مؤتمر السكان يتحدث عن هذه الإباحية الجنسية ، فيقول: إنها حالة الرفاهية البدنية والعقلية والاجتماعية الكاملة،المنطوية على أن يكون الأفراد لاحظ تعبير الأفراد من جميع الأعمار أزواجاً وأفراداً فتياناً وفتيات، مراهقين ومراهقات، قادرين على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونة لاحظ عدم اشتراط الحلال والشرعية هي كالغذاء، حق للجميع، ينبغي أن تسعى جميع البلدان لتوفيره في أسرع وقت ممكن، في موعد لا يتجاوز عام ٢٠١٥م أي أنه أكثر من مباح، فالسعي لتحقيقه بجميع البلدان في أسرع وقت ممكن، وقبل سنة ٢٠١٥م، واجب على جميع البلدان بل ولا تكتفي هذه الوثيقة بذلك، وإنما تتجاوز إباحة هذه الإباحية إلى حيث تدعو للتدريب والترويج والتعزيز لهذا السلوك الجنسي المأمون والمسئول ٠

ونجد ممارسات منفردة، حيث نجد أن أمريكا تضغط تارة باسم حقوق الإنسان التي أهدرتها في أبى غريب وجوانتامو ومذابح أفغانستان وقصف الفالوجة وتارة باسم الديمقراطية والحرية لتمرير ما تريد على دول العالم التي لا توافقها بينما الحرية والديمقراطية الغربية والقانون

الدستوري جعل الغرب يسقط نتائج الانتخابات في تركيا والجزائر ونيجيريا لأن الناجحين مسلمين.

للأسف الغرب حريص على فرض قيمه الاجتماعية والثقافية وعولمتها وهى تمثل أسوأ ما عنده بينما لا يسعى إلى عولمة العلم والتقدم حيث يجب الاحتفاظ به ومما يزيد خطورة العولمة ضعف العالم الإسلامي وهزيمته أمام الغرب وهذا ما يزيد اختراق العولمة الثقافية للهوية، كما قال ابن خلدون المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وسائر أحواله وعوائده فضلاً عن أن العولمة تحمل فكرة استبداد القوي الذي يسخر إرادات الشعوب الضعيفة لصالحه، وتكمن في فكرة سيطرة المهيمن على الاقتصاد العالمي والقوة العسكرية والإدارة السياسية على شعوب العالم الفقيرة، بل والسعي لإفقار ما ليست فقيرة، وتكمن كذلك في فكرة الإذابة التي يقوى عليها من يمتلك أدوات الاتصال والتحكم بها، وبالمعلومات وبإنتاجها،وتدفقها دون مراعاة لثقافات الشعوب وحاجاتها وخصوصياتها وإمكاناتها كما أن ما يزيد خطورة العولمة ذراعها الإعلامي الخاضع للسيطرة الصهيونية والتي تمسك بخيوطها، تسير هذه القوة في السيطرة مع القوة الغاشمة العسكرية في فرض العولمة على الآخرين، فوظيفة المنظومة الإعلامية هي أن تتسلى وتتلهى وتعلم وترسخ القيم والمفاهيم والمعتقدات وأنماط السلوك الأمريكي على الآخرين، كما يرى أحد الخبراء الأمريكين، ولتحقيق ذلك

صارت ميزانية الإعلام موازية تماماً لميزانية الدفاع في بعض الدول، فإحصاءات عام ١٩٨٦م تقول إنه بلغ رقم اقتصاد الإعلام في الغرب والاتصالات مبلغ ١١٧٥بليون دولار تقريباً منها ٥٠٥ بلايين للولايات المتحدة الأمريكية،و٢٦٧بليوناً للجماعة الأوروبية، و٢٥٣ بليوناً لليابان ، و ١٥٠بليوناً فقط للآخرين في العالم هذه الميزانيات الضخمة للإعلام في الشمال جعلته يتحكم بقوة في الإعلام المتدفق، في اتجاه الجنوب الأمر الذي أحدث خللاً في المنظومة الإعلامية، وقد فشلت جميع الجهود والمبادرات التي بذلت في إطار الأمم المتحدة لوضع أسس لقيام نظام إعلامي جديد يحقق التوازن بين الشمال والجنوب وهناك دراسات كثيرة تبين معاناة شعوب شرقية ليست إسلامية وسائرة في الفلك الغربي كاليابان وكوريا الجنوبية من العولمة ومن الدراسات الميدانية التي تمت لمعرفة تأثير المواد التلفزيون الأمريكي على شباب كوريا الجنوبية قام بها كانج ومورجان ومن نتائج هذه الدراسة أن هذه المواد أدت إلى تأثير بالغ على القيم التقليدية الكورية، فأصبحت الفتيات الكوريات أكثر تحرراً من القيم الأسرية والأخلاقية، ويعتقدن أنه لا حرج من الممارسة الجنسية خارج الزواج، وأن ذلك من قبيل الحرية الجنسية، وأصبحن يرتدين الملابس الأمريكية، ويحتقرن العقيدة الكونفوشيوسية.

كما أننا نجد دولاً كالفلبين وهي دولة تصنف نصرانية سائرة في الفلك الأمريكي حيث نجد في دراسة أجريت على ٢٥٥ طالباً فلبينياً وجد أن

التعرض لمواد التلفزيون الأمريكية قد ارتبط إيجابياً بتأكيد هؤلاء الطلاب على قيمتي: المنفعة والمادية، باعتبارهما القيمتين الأكثر أهمية في حياتهم، في حين تدنت لديهم قيم فلبينية أصيلة مثل: الصفح، والتسامح، والتضحية، والحكمة.

وإذا كانت بعض دول الغرب نفسه أو من هو قريب منها يشكو من أثر عولمة الثقافة على الهوية، حيث نجد أن فرنسا مع أنها غربية نصرانية، لكن بسبب اختلاف اللغة فإنها أكثر الدول الغربية تشكو من عولمة الثقافة ومن هيمنة اللغة الإنجليزية، والخوف على الهوية الفرنسية لذلك لجأ الفرنسيون إلى وضع الثقافة في خانة الاستثناء، لأنهم تنبهوا إلى أن قوة الإنتاج الثقافي الأمريكي تؤدي إلى التغيير التدريجي في معايير السلوك وأنماط الحياة .

وهناك دراسة في استراليا وهي نصرانية تتحدث الإنجليزية أي مشاركة للولايات المتحدة في الهوية تقريباً تشكو من مواد التلفزة الأمريكية على الأطفال، لأنها تؤدي إلى فقدان الانتماء وإلى أزمة أخلاقية وغربة ثقافية، وكذلك كندا حيث عبرت وزيرة الثقافة الكندية عن انزعاجها من الهيمنة الثقافية الأمريكية، وتداخلها قائلة: من حق الأطفال في كندا أن يستمتعوا بحكايات جداتهم، ومن غير المعقول والمقبول أن تصبح ٦٠% من برامج التلفزيون الكندي مستوردة، وأن

يكون ٧٠% من موسيقانا أجنبية، وأن يكون ٩٥% من أخلاقنا أمريكية .

وهذه الأمثلة توفرها مئات الدراسات في أنحاء العالم من خوف المثقفين على هوية شعوبهم من العولمة الأمريكية، ألا يحق لنا كمسلمين ونحن نحمل أعظم عقيدة وخير لسان نزل به القرآن، وأعظم تاريخ بالإضافة إلى القيم الحضارية العالية أن نخشى على تلك الجواهر من أثر العولمة على الهوية إن أخطر ما تحمله العولمة تهديدها لأصل العقيدة الإسلامية، لما تدعو له من وحدة الأديان، وهي دعوة تنقض عقيدة الإسلام من أساسها، وتهدمها من أصلها،لأن دين الإسلام قائم على حقيقة أنه الرسالة الخاتمة من الله تعالى للبشرية، الناسخة لكل الأديان السابقة التي نزلت من السماء، ثم أصابها التحريف والتغيير، ودخل على أتباعها الانحراف العقائدي كما أن العولمة تسعى لإعادة تشكيل المفاهيم الأساسية عن الكون والإنسان والحياة عند المسلمين، والاستعاضة عنها بالمفاهيم التي يروج لها الغرب ثقافياً وفكرياً، فالكون في نظر العولمة الثقافية والفكرية لم يخلق تسخيراً للإنسان، ليكون ميدان امتحان للناس لابتلائهم أيهم أحسن عملاً والإنسان لم يخلق لهدف عبادة الله تعالى وهذه المفاهيم الأساسية للعقيدة الإسلامية، ليست في نظر العولمة الفكرية والثقافية سوى خرافة .